ضوابط حوار الحضارات
في الفكر الاسلامي

الباحث يوسف بنجديدة
المغرب

ملخص:

تروم هذه الدراسة إلى محاولة الوقوف على بعض ضوابط حوار حضارات وأهم متطلبات تحقيقه في الفكر الاسلامي، وفق ما رسمه الشرع وما يتوافق مع مقاصده، وتكمن أهمية الموضوع في أن هذه الضوابط تعتبر أحد أهم الآليات لعلاج ظاهرة الاختلاف بين الناس.

وحيث إن الاختلاف والتعارف يُعتبران سنّتان من السنن الكونية، وأن التعارف فريضة إسلامية وجب تحقيقها باعتباره مطلبا قرآنيا، وحيث إنه لا يمكن تحقيقه إلا من خلال الحوار مع مختلف الحضارات، فإن ثمة ضوابط شرعية ينبغي الالتزام بها ومراعاتها في سياق الحديث عن ضمان نجاح العملية الحوارية، ومعالجة ظاهرة الاختلاف الطبيعية.

ارتباطا بالطّرح العام لهذه الدراسة، اتضحت معالم خطّتها من خلال توطئة وثلاثة محاور؛ تناول المحور الأول تحديد الألفاظ الواردة في فروض هذه الدراسة، وثلاثة محاور رئيسية.

إن الرّاهن الحضاري أثبت أن حوار الحضارات هو الخيار الوحيد للبشرية لبناء علاقات اجتماعية تعارفية ترتكز الى تفعيل القيم والمصالح الإنسانية المشتركة.

فما هي أهم ضوابط حوار الحضارات في الفكر الإسلامي؟ وإلى أي حدٍّ تُسهم هذه الضوابط في تحقيق حوار حضاري فاعل؟

وقد خلصت هذه الدراسة إلى مدى أهمية إبراز واستحضار هذه الضوابط في حوار الحضارات، وضرورة تفعيلها لحفظ المقاصد الأساسية من الحوار الحضاري.

الكلمات المفتاحية للدراسة: – الضابط – الحوار – الحضارة – الفكر الإسلامي.

ABSTRACT

This study aims to explore some of the principles governing the dialogue of civilizations and the key requirements for achieving it within Islamic thought, in accordance with Islamic law and aligned with its objectives. The significance of the topic lies in the fact that these principles are considered one of the most important mechanisms for addressing the phenomenon of differences among people.

Since diversity and mutual recognition are both universal laws, and since mutual recognition is an Islamic duty that must be fulfilled as a Qur'anic requirement, and given that it cannot be achieved except through dialogue with various civilizations, there are legal principles that must be adhered to and observed to ensure the success of the dialogue process and to address the natural phenomenon of difference.

In connection with the general premise of this study, its structure became clear through an introduction and three main axes. The first axis addressed the clarification of the terms mentioned in the assumptions of this study, followed by three main topics.

The current civilizational context has demonstrated that the dialogue of civilizations is the only option for humanity to build social relationships based on activating shared human values and interests.

So, what are the most important principles of civilizational dialogue in Islamic thought? And to what extent do these principles contribute to achieving an effective civilizational dialogue?

This study concludes with the importance of highlighting and emphasizing these principles in the dialogue of civilizations and the necessity of activating them to preserve the essential objectives of civilizational dialogue.

Keywords for the study: principle – dialogue – civilization – Islamic thought.

المقدمة

يعتبر الحوار أحد أهم الخيارات المتاحة لمعالجة ظاهرة الاختلاف، فهو المدخل الطبيعي لتعارف وتفاعل الشعوب على اختلاف ثقافاتها ومذاهبها سعيا الى بناء، وتقدم، وتكامل الحضارة الإنسانية.

فالحوار باعتباره سلوكا إنسانيا ساميا له دور رفيع في تقريب هوة الاختلاف، ومنع النزاعات باختزاله الأفكار والمسافات، ونسجه أواصر التعارف والعلاقات.

إنّه المبدأ القرآني لترسيخ قيم التعارف وقبول الاختلاف والسعي إلى البحث عن المشترك الإنساني، لقد جاء خطاب التعارف موجها في مجموعة من الآيات لكافة الناس قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لتعارفوا إن أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ ﴾[1]، هذا الخطاب العالمي للتعارف التي تضمنته الآية الكريمة؛ إنما يشمل جميع البشر على اختلاف ألوانهم وقومياتهم وأديانهم، وفيه إشارة جليّة إلى الحوار لأنه لا تعارف بدون حوار، فالعلاقة بينهما علاقة وجود وعدم.

وحقيقة التعارف؛ هي تدبير الاختلاف من خلال الاعتراف بحق الآخر في الاختيار، وإبراز الخصوصيات الحضارية والثقافية ومن ثم الحرص على التواصل والحوار من أجل تدبير راشد لهذا الاختلاف الطبيعي.

بيد أنّ حوار الحضارات في الفكر الاسلامي يحتاج إلى تفعيل واقعي، فالملاحظ عدم استيفاء بعض اللقاءات لضوابط موضوعية، مما يفضي الى نتائج سلبية.

في ضوء هذا الإدراك المعرفي؛ تأتي هذه الدراسة في محاولة لتقديم ما بدا للباحث مفيدا في هذا السياق، ولعل الخوض في مسألة ضوابط الحوار الحضاري في الفكر الإسلامي يُعد من أهم الآليات لتفعيل حوار حضاري في حياة المجتمع البشري.

مشكلة الدراسة

يعتبر الاختلاف ناموسا كونيا طبيعيا عدّه الله عز وجل آية من آياته الدالة على وجوده، قال تعالى ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴾[2]. وحيث إنه آية إلهية وسنّة كونيّة، فهو بهذا الإطراء الربّاني عامل ثراء وإغناء ينبغي أن يسعى العقلاء إلى استثماره من أجل التعايش والتكامل البشري.

ومن الكلام المشهور على الألسن أن الاختلاف محمود والخلاف مذموم، ولا غرو أن تَتَعدّد مُسببات الاختلاف، ويبقى الاختلاف الفكري على ذروة سنمها الذي قد يتطور في حالة غياب ضوابط وآداب إلى خلاف مذموم وكراهية، واصطدام، والسبب في ذلك غياب تلك الضوابط.

من هذا المنطلق؛ انقدح في ذهن الباحث هذا السؤال: هل هناك ضوابط تنظم عملية حوار الحضارات في الفكر الإسلامي؟ ويندرج تحته بعض التساؤلات الفرعية التي يسعى الباحث من خلال هذه الدراسة للإجابة عنها، تمثلت فيما يلي: -ما هي أهم الضوابط التي ينبغي استحضارها في عملية الحوار الحضاري؟

- إلى أي حد تُسهم هذه الضوابط في إنجاح حوار حضاري فاعل؟

أهداف الدراسة: يسعى الباحث من خلال هذه الدراسة الى تحقيق الأهداف التالية:

- نشر الوعي بحقيقة وجود الاختلاف في حياة الناس وتقبل الآخر.

– عرض مجموعة من الضوابط في كيفية التعامل مع المخالف.

منهج الدراسة بما أن حوار الحضارات ذو طابع إنساني محض، فقد اقتدت هذه الدراسة اعتماد المنهج الوصفي التحليلي للكشف عن المتطلبات النظرية اللازمة لتحقيق ضوابط حوار حضاري في ضوء خصائص التشريع الاسلامي.

خطة الدراسة: يتكون البحث من توطئة وأربعة مباحث وخاتمة، احتوت المقدمة على مشكلة البحث، ومنهجه، وتساؤلاته ، وهيكله، وأما المباحث فهي موزعة على الشكل التالي:

توطئة:

المبحث الأول: مبحث مفاهيمي.

المبحث الثاني: الضوابط الشرعية

المطلب الأول: إخلاص النية لله تعالى.

المطلب الثاني: تأهيل العقيدة عند المحاور مسلم.

المبحث الثاني: الضوابط العلمية للحوار.

المطلب الأول: تحديد مواضيع الحوار وضبط مصطلحاته.

المطلب الثاني: نبذ التعصب للرأي ومبدأ الخيرية.

المبحث الثالث: الضوابط الأخلاقية.

المطلب الأول: حسن الاستماع.

المطلب الثاني: الحوار بالتي هي أحسن.

ثم ختُم البحث **بخاتمة** تضمنت خلاصة لعدد من الاستنتاجات، وفهرسا بالمصادر والمراجع التي أُفيد منها لإنجاز هذه الدراسة.

المبحث الأول: تمهيد في المفاهيم اللغوية

من المبادئ الأصيلة المتفق عليها بين الدارسين والباحثين قديما وحديثا قبل الانطلاق في أي بحث أو نظر، تحديد المفاهيم التي تم اختيارها، وورودها في فرض الدراسة وتساؤلاتها، والوقوف على جذورها اللغوية ومفاهيمها الاصطلاحية، حتى ينطلق البحث من أرضية صُلبة، على أساس اصطلاح ما اصطلح عليه في البداية، " فكل من تلفظ بلفظ فإليه تحديده، إذا أجاد العبارة لما يقصد إليه من المعنى ولا مناقشة معه البـــتة إلا إذا كان قد زاغ عما قصده بشيء مما سيقول"[3]

فما هو معنى الضابط في مظانه اللغوية؟

الضوابط لغة: جمع ضابط، وهو اسم فاعل من الضبط قال ابن فارس " الضاد والباء والطاء أصل صحيح، ضبط الشيء ضبطاً، و الأضبط الذي يعمل بيديه جميعاً"[4].

وجاء في تهذيب اللغة: "الضَّبْطُ لُزُومُ شَيْءٍ لَا يُفَارِقُهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَرَجُلٌ ضَابِطٌ شَدِيدُ الْبَطْشِ وَالْقُوَّةِ وَالجِسْمِ" [5].

وفي لسان العرب: "الضَّبْطُ لُزُومُ الشَّيْءِ وَحَبْسُهُ، وَضَبْطُ الشَّيْءِ حِفْظُهُ بالحزم؛ والرَّجُلُ ضَابِطٌ أَيْ حَازِمٌ، وَرَجُلٌ أَضْبَطُ يَعْمَلُ بِيَدَيْهِ جَمِيعاً"[6].

الضابط اصطلاحا:

هي" قضية كلية من حيث اشتمالها بالقوة على أحكام جزئيات موضوعها من باب واحد".[7]

بمعنى أن الضوابط هي بمثابة أحكام كلية تنطبق على ما تتضمنه من جزئيات وهذا تعريف في مجال الفقه الإسلامي.

والضابطة: " الماسكة والقاعدة، وجمعه ضوابط".[8]

وكون الضابط في مفهومه اللغوي هو الحزم؛ فقد انتخلت له تعريفاً إجرائياً أحسبه مناسباً للفعل المعرفي لهذه الدراسة، وهو أن الضوابط هي مجموعة من القيود والقواعد المتواضع عليها بين الأطراف المتحاورين، التي تساعد في تأطير عملية الحوار وبالتالي نجاحها وتحقيق أهدافها، و هي (أي الضوابط) بمثابة عَقد ملزم متفق على بنوده ، والعقد شريعة المتعاقدين.

الحوار لغة:

" أصل الكلمة من مصدر حَارَ يَحُورُ إذا رجع وحقيقتها مراجعة الكلام بالخطاب والجواب. ورد في الصحاح للجوهري قوله والمحاورة المجاوبة والتحاور التجاوب " [9].

قال الفيروز آبادي في القاموس "وتحاوروا تراجعوا الكلام بينهم، والتحاور التجاوب . ومن معاني مادة (ح.و.ر) العقل؛ "فالأحور العقل، يقال ما يعيش فلان بأحور، أي ما يعيش بعقل يرجع إليه " [10].

بناء على هذا التحديد اللغوي؛ يكون الحوار والعقل في الفكر الإسلامي أمرين متلازمين مما يتطلب إسهام العقلاء في السعي إلى الحوار وتحقيق أهدافه، ولعلّ اقتران الحوار بالعقل في اللسان العربي هو الذي دفع طه عبد الرحمان إلى ابتداع مصطلح «المعاقلة» في مقابل مصطلح «المحاورة»، و مصطلح «المعاقلان» في مقابل مصطلح «المحاوران»؛ "أي أن الواحد منهما يشرك الأخر في تعقيل المسالة المطروحة للمناقشة."[11]

الحوار اصطلاحا:

يُعرِّف الدكتور محمد الكتاني الحوار بأنه " سلوك حضاري، وليس مجرد محادثة بين عدة أطراف و أنه وليد الشعور بضرورة الاختلاف مع الآخر، والإقرار بهويته من منطلق الرغبة في الوصول إلى تفاهم حقيقي بين المتخالفين، على أساس الاعتراف بما لكل منهما من مشروعية الاختلاف والمغايرة" [12]ـــ

ويُراد به كذلك "مراجعة الكلام وتداوله بين طرفين لمعالجة قضية من قضايا الفكر والعلم والمعرفة بأسلوب متكافئ يغلب عليه طابع الهدوء والبعد عن الخصومة"[13].

مفهوم الحضارة:

الحضارة لغة: جاء في لسان العرب في مادة "حضر": الحُضور نقيض المغيب و الغيبة، و الحَضر خلاف البدو، والحَاضِر خلاف البادي، الحاضِر المقيم بالبادية، والحَضر و الحَضرة والحَاضرةُ: خلاف البادية، وهي المدن والقرى و الريف، سميت بذلك لأن أهلها حضروا الأمصار ومساكن الديار التي يكون لهم فيها قرار...، و الحَاضِرةُ: و الحَاضِر الحي العظيم أو القوم." [14]

الحضارة اصطلاحا:

الحضارة هي:" ثمرة كل جهد يقوم به الإنسان لتحسين ظروف حياته، سواء أكان المجهود المبذول للوصول إلى تلك الثمرة مقصودا أم غيـــر مـــقـــصـــود، وسواء أكانت الثمرة مادية أم معنوية"[15].

وهي" التجسيد العملي لتلك الاستجابات والمواقف التي ينزع إليها الأفراد، وهي بالتالي تنزع إلى العمومية خلافاً للثقافة التي تنزع للخصوصية، فهي (الحضارة) الطور الأرقى في سلم تقدم الإنسان»"[16].

وهنا لابد أن أُنوِّه بفضل السبق لعالم الاجتماع ابن خلدون الذي تقدّم على كل من ادعى ابتداع هذا المفهوم، سواء على المستوى التأريخي والتسلسل الكرونولوجي أو على مستوى التصور لمفهوم الحضارة بمفهومها الحالي وهو القائل"اعلم أن الكلام في هذا الغرض مستحدث الصنعة، غريب النزعة...وكأنه علم مستنبط النشأة، ولعمري لم أقف على الكلام في منحاه لأحد من الخليقة."[17]

مفهوم الفكر الإسلامي:

الفكر لغة: عرّف ابن منظور الفكر بقوله: " الفَكْرُ والفِكْرُ: إِعمال الْخَاطِرِ فِي الشيْءِ؛ ورجل فِكِّير، مثال فِسِّيق، وفَيْكَر: كَثِير الفِكْر. ومن العرب من يقولُ: الفِكْرُ، الفِكْرَة، والفِكْرى عَلَى فِعْلى اسمٌ، وهي قَلِيلَةٌ. وقال الجوهري: التَّفَكُّر التأمل، وَالِاسْمُ الفِكْرُ والفِكْرَة، وَالمصدر: الفَكْر، بِالْفَتْحِ. قال يعقوبُ: وَالْفَتْحُ فِيهِ أَفصح مِنَ الكسر" [18].

وجاء في القاموس المحيط " الفِكْرُ، بالكسر ويُفْتَحُ: إعمالُ النظرِ في الشيءِ. .وهو فِكِّيرٌ، كسِكِّيتٍ، وفَيْكَرٌ، كَصَيْقَلٍ: كثيُ الفِكْرِ.ومَالي فيه فَكْرٌ، أي: حاجةٌ"[19]

أما مركب الفكر الإسلامي فيعتبر " من المصطلحات الحديثة وهو يعني كل ما أنتج فكر المسلمين منذ مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليوم في المعارف الكونية العامة المتصلة بالله والعالم والإنسان، والذي يعبر عن اجتهادات العقل الإنساني لتفسير تلك المعارف العامة في إطار المبادئ الإسلامية عقيدة وشريعة وسلوكاً."[20]

في ضوء ما سبق؛ يمكن القول إن الفكر الاسلامي هو فكر إنساني أفرزه العقل المسلم، وهو فكر غير معصوم من الخطأ ولا يُعبِّر عن الإسلام إلّا بالقدر الذي ينضوي فيه تحت خصائص تشريعه، والفرق بينه وبين الإسلام هو:" الفرق بين ما لله وما للإنسان، والصلة بين الأمرين هي الصلة بين شيئين، أحدهما قام على الآخر، واستند إليه في قيامه ووجوده، ولكن لا على أنه يصوِّره تمام التصوير، أو يكون معبراً عنه تعبير المثل للمثل."[21]

المبحث الثاني: الضوابط الشرعية:

للحوار في الفكر الإسلامي ضوابط و منطلقات وأصول شرعية لابد للمحاور أن ينزع إليها بِداية في حواره مع المخالف، فمن المطالب المتحضرة قبل الخوض في أي حوار، وضع ضوابط بين المتحاورين و الاتفاق عليها، بحيث تصبح بمثابة قانون داخلي مُلزم لجميع الأطراف حتى يسلك الحوار سبل السلام القويمة، منهجا، و تنزيلا، و تحقيقا، فيحقق هدفه الرئيس؛ و هو الوصول الى نقاط التقاطع المشتركة، بمعنى أصح الوصول إلى الحق، و" قد اهتم كثير من علماء المسلمين بالدعوة للتفاعل مع الحضارات الأخرى، ونقل العلوم المفيدة وترجمتها، وفق مجموعة من الضوابط والقيود الشرعية، التي تُحصِّن وتُحكِّم وتُسدِّد، وتكون في علاقتها مع عملية التفاعل الحضاري كالشرط مع المشروط والدليل مع المدلول، ويُعلم، بداهة وعقلاً، أن المشروط متوقف على شرطه، وأن المدلول مبني على دليله، لذلك فإن التفاعل الحضاري متوقف على ضوابطه الشرعية والتربوية، وجوداً وعدماً." [22]

" فإذا كان كل تفكير يرتبط بمرجعية تصورية وتشريعية فإن الحوار في الفكر الإسلامي ينبغي أن يتقيد بضوابط منهج الإسلام الشرعية –بصرف النظر عن طبيعة الموضوع مدار الحوار ونوعية المحاور بمستوييه التصوري والإجرائي الذي رسمه القرآن الكريم وأوضحه الهدي النبوي الشريف وأصلّه علماء الأمة في مباحثهم عن مناهج الحجاج وأصول الاستدلال وتبنته ثقافة الحوار وألزمت به المحاور المسلم، فإذا أخل به ينزع بذلك عن حواره –من حيث يريد أو لا يريد –لبوس (الإسلام) ومسوح (الحضارة) "[23].

ولعلّ أبرز هذه الضوابط الشرعية مما يناسب مقامنا هذا ما يأتي:

المطلب الأول: إخلاص النية لله تعالى:

يعتبر موضوع إخلاص النية لله في الأعمال والأقوال والسلوك العام، من المواضيع التي يغيب طرحها والانكباب عليها دراسة وتحليلا، على الرغم من قوة حضوره داخل إطار الفعل المعرفي عموما، وربط مفهومه التشريعي المقاصدي، بمفهومه التنزيلي ضمن النشاط الإنساني العام.

" ولقد تكلم العلماء – علماء التوحيد ـــــ، وعلماء التربية، أو(التخلق)، وعلماء الفقه – تكلموا في هذا الموضوع تحت باب النية، واعتنوا به العناية اللازمة، حتى **قال ابن أبي جمرة**، الأندلسي المالكي: وددت لو كان من الفقهاء من ليس له شغل، إلا أن يعلم الناس مقاصدهم في أعمالهم، ويقعد إلى التدريس في أعمال النيات ليس إلا، فإنه ما أتي على كثير من الناس إلا من تضييع ذلك "[24].

فما هي حدوده اللغوية والاصطلاحية؟ وماهي آثاره على النشاط الاجتماعي عموما وحوار الحضارات خصوصا؟

الإخلاص لغة

جاء في اللسان "خَلَصَ الشيءُ، بالفتح، يَخْلُصُ خُلُوصاً وخَلاصاً إذا كان قد نَشِبَ ثم نجا وسَلِم. وأَخْلَصه وخَلَّصَه وأَخْلَص لِلّه دينه أَمحْضَه. وأخلص الشيء: اختاره. "[25].

اصطلاحا:

قال ابن القيم في مدارجه:" وقد تنوعت عبارتهم في الإخلاص والصدق، والقصدٌ واحد. فقيل: هو إفراد الحق سبحانه بالقصد في الطاعة. وقيل تصفية الفعل من ملاحظة المخلوقين... وقيل الإخلاص استواء أعمال العبد في الظاهر والباطن. والرياء: أن يكون ظاهرهٌ خيرا من باطنه. والصدق في الإخلاص أن يكون باطنه أعمر من ظاهره"[26].

النية لغة:

الذي ينظر في استعمال العرب لمادة (ن وي) يجد أنها تدور في تصاريفها على القصد.

فنجدهم يقولون "نوي نوى الشئ نِيّة ونِيَة، بالتخفيف عن اللحياني وحده، وهو نادر"[27].

" وقال بعض الشارحين فمن شدد وهو المشهور–كانت من نوى ينوي إذا قصد. ومن خفف كان من ونى ينى إذا أبطأ وتأخر، وهذا بعيد، لأن مصدر ونى ينى ونياً: يقال: ونيت في الأمر أني ونياً، أي ضعفت، فأنا وان."[28]

و" انتواه قصده، و النّوى التحول من مكان الى مكان آخر أو من دار إلى دار غيرها، كما تنتوي الأعراب في باديتها، وفلان ينوي وجه كذا، أي يقصده".[29] وقد يراد بالنية في اللغة العزم، يقول صاحب المصباح المنير: "خُصّت النية في غالب الاستعمال بعزم القلب على أمر من الأمور"[30].

أما **لفظ النيّة في الاصطلاح** فلا ينأى عن مدلوله اللغوي، إذ أن مفاهيمها تقترن بالعزم والقصد والإخلاص.

قال البيضاوي" النية عبارة عن انبعاث القلب نحو ما يراه موافقا لغرض من جلب نفع أو دفع ضر حالا أو مال"[31].

أثر إخلاص النية لله في حوار الحضارات:

تتجسد آية هذا المنطَلق في حديث عمر رضي الله عنه حين قال: سمعت رسول الله ﷺ يقولُ" «إنما الأعمالُ بالنية –وفي رواية: «بالنيات»، وإنما لكُلِّ مرى ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، من كانت هجرته إلى دنيا يُصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه"[32].

وقوله ﷺ «إنما الأعمال بالنيات»، " «إنما» أداة حصر، و«الأعمال» جمع عمل، والمراد الأعمال المتقرّب بها الصّادرة عن الجوارح دون القلب لِئلّا يلزم الدّور أفعالاً كانت أو أقوالا، صَدَرَتْ مِن مُكَلّف أو غيره، لأن عبادة الصّبيّ متوقفة عليها اتفاقاً"[33].

والنية في اصطلاح **ابن حجر** هي:" عبارة عن انبعاث القلب نحو ما يراه موافقا لغرض من جلب نفع أو دفع ضر حالا أو مآلا، والشرع خصصه بالإرادة المتوجهة نحو الفعل لابتغاء رضاء الله وامتثال حكمه"[34].

وممّا لا ريب فيه أن النيّة تُميّز العادة عن العبادة، من أجل ذلك وجب على المحاور إخلاص النية لله عز وجل، من أجل ربط الجانب الروحي بالنشاط الاجتماعي لينطلق من منطلق إيماني، ويتلبس بلبوس حضاري، "فالكلام في مسألة النية شديد الارتباط بأعمال القلوب ومعرفة مراتبها وارتباطها بأعمال الجوارح وبنائها عليها وتأثيرها فيها صحة و فسادا، و إنما هي الأصل المراد المقصود وأعمال الجوارح تبع ومكملة ومتممة وأن النية بمنزلة الروح والعمل بمنزلة الجسد للأعضاء الذي إذا فارق الروح فموات وكذلك العمل إذا لم تصحبه النية فحركة عابث، فمعرفة أحكام القلوب أهم من معرفة أحكام الجوارح إذ هي أصلها وأحكام الجوارح متفرعة عليها ".[35]

أما عند **ابن القيم** فإن السداد والخذلان في أي عمل مرتبطان بصلاح النية أو فسادها، فهي أساس كل أمر وفرضه، قال في الإعلام:" النية هي رأس الأمر وعموده وأساسه وأصله الذي عليه يبنى فإنها روح العمل وقائده وسائقه، والعمل تابع لها ويبنى عليها يصِّح بصحتها ويفسد بفسادها وبها ستجلب التوفيق وبعدمها يحصل الخذلان"[36].

"وقاعدة الشريعة التي لا يجوز هدمها أن المقاصد والاعتقادات معتبرة في التصرفات والعبارات كما هي معتبرة في التقربات والعبادات، فالقصد والنية والاعتقاد يجعل الشيء حلالا أو حراما، وصحيحا أو فاسدا وطاعة أو معصية، كما أن القصد في العبادة يجعلها واجبة أو مستحبة أو محرمة أو صحيحة أو فاسدة"[37].

والرأي عندي؛ أن استحضار هذا المعنى المقاصدي لصلاح النية في ذهنيّة المحاور أمر واجب، فبه يسمو حوار الحضارات ويرتقي على أن يكون ترفاً فكرياً أو عادة من عوائد البذخ النظري، بل إن الحوار يتبلور حينئذ ليؤدي دوره التشريعي والحضاري المتجسد في بيان الحق وتنزيله في واقع الحياة وإرشاد الناس إلى الهدى وتثبيتهم عليه.

ف" لابد من حسن النية، فلو تكلّم بحق لِقَصْدِ العلوّ في الأرض أو الفساد كان بمنزلة الذي يقاتل حمية ورياء، وإن تكلم لأجل الله تعالى مخلصاً له الدين كان من المجاهدين في سبيل الله ومن ورثة الأنبياء خلفاء الرسل. "[38]

وهو ما ذهب إليه **الخطيب البغدادي** حينما قال:" ويُخلص النية في جداله بأن يبتغي به وجه الله تعالى... وليكن قصدُه في نظره إيضاح الحق وتثبيته دون المغالبة للخصم"[39].

" فالعاقل لا يفعل فعلا إلا مسبوقا بتصوره وإرادته وذلك حقيقة النية، فليست النية أمرا خارجا عن تصور الفاعل وقصده لما يريد أن يفعله."[40]

وحقيقة الإخلاص ألا يبتغي المحاور من حواره مع المخالف له إلا وجه الله تعالى، وبيان الحق والذب عنه، وقد ضرب الأنبياء والرسل عليهم السلام أروع الأمثلة في إخلاص نيّاتهم في حوارهم مع أقوامهم، فهذا **نبي الله نوح** مثلاً يقول ﴿ و يَقوم لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الله﴾[41]، وهذا **نبي الله هود** يقول ﴿يَقَوْمِ لَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[42]، وهذا **نبي الله صالح** يقول ﴿وَمَا أَسئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[43].

إن حوار الحضارات يبقى من أهم وسائل وآليات الإصلاح العام والشامل لمجموع النشاط الإنساني وهو رهين بتجديد النية وإخلاصها لله، لقوله تعالى:﴿ إن يريدا اصلاحا يوفق الله بينهما﴾[44] فإذا كانت النية من الحوار هي الإصلاح و إبطال الفساد وإظهار الحق، فلا شك أنه سيؤتي ثماره، لأن الله وعد بالتوفيق ووعده الحق، وهذا الإصلاح نجده منصوصا عليه في موارد التشريع الإسلامي الدال على مقاصده، فهذا **نبي الله شعيب** عليه السلام يخاطب قومه بأن الغرض من حواره معهم هو الإصلاح، قال تعالى: ﴿إِن أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾[45].

"فالمقصد العام من التشريع هو حفظ نظام الأمة، واستدامة صلاحه بصلاح المهيمن عليه وهو نوع الإنسان، ويشمل صلاحه وصلاح عقله وصلاح عمله وصلاح ما بين يديه من موجودات العالم الذي يعيش فيه."[46]

ثانيا: تأهيل العقيدة عند المحاور المسلم.

تعتبر العقيدة الإسلامية هي أول من رسم للفكر الإسلامي ضوابط الحوار ليصل المحاور المسلم إلى المقاصد والغايات النبيلة التي أرادها الدين الإسلامي، ولا يخفى على أحد تفشي ظاهرة القطيعة عند بعض المسلمين بين الجانب الروحي والجانب الاجتماعي،

وكأنهما قطبان متغايران، وعلاج هذه الظاهرة يكمن في الوعي بضرورة الوصل بين الروحي والاجتماعي من أجل تمكين المحاور المسلم بحيث يتماثل مع ذاته أولا، فيترجم نشاطه الاجتماعي وشهوده الحضاري بسلوكات تعبّر عن أصالة عقيدته.

وفكرة الوصل بين الروحي والاجتماعي في عملية حوار الحضارات، يمكن أن تعطي أكلها بإعادة تأهيل العقيدة عند المحاور، فالمشكلة التي تواجه المسلم اليوم هي تقريبا المشكلة نفسها التي عبر عنها الإمام مالك رحمه الله في المبسوط[47] بقوله "لا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها"[48]، ومعلوم أن الذي صلح به أول هذه الأمة هو كتاب الله وسنة رسوله ﷺ؛ فهما منبع العقائد الصافية والإصلاح فيهما شامل لنقائص البشرية جميعها.

"فالعلاقة الروحية بين الله وبين الإنسان، هي التي تلد العلاقات الاجتماعية، وهذه بدورها ما تربط ما بين الإنسان وأخيه الإنسان، فهذه العلاقة التي تربط الفرد بالمجتمع هي في الواقع ظل العلاقة الروحية في المجال الزمني."[49]

و عليه فإن أول لبنة إصلاح، يجب أن تطال الجانب الروحي للمحاور المسلم، باعتباره أساس كل تغيير، وهو ما عبّر عنه القرآن الكريم في قوله تعالى ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾[50] ومن المعلوم أن أعظم التغييرات وأعمقها في النفس هي العقيدة الصحيحة، فهي تُحدث تغييرا شاملا يطال حتى سمت الفرد ومظهره، ولا شك أن هذا ينعكس إيجابا على سلوك المحاور وعلى عملية الحوار مع المخالف.

" لذلك نرى الإسلام عالج صلاح الإنسان بصلاح أفراده الذين هم أجزاء نوعه، وبصلاح مجموعه وهو النوع كله، فابتدأ الدعوة بإصلاح الاعتقاد الذي هو إصلاح مبدأ التفكير، ثم عالج الإنسان بتزكية نفسه وتصفية باطنه، لأن الباطن محرك الإنسان إلى الأعمال الصالحة"[51].

والعقيدة هي المحرّك الأساس للأعيان في حياتهم، فسلوك الإنسان هو في الحقيقة إسقاط فعلي لما يدين به المرء و يعتقده، " فالعقيدة في الإسلام عنصر جوهري في تشريعه بوجه العام، ذلك أن الحضارة المادية التي تقوم على فراغ عقائدي، لن تستهدف أغراضا أو قيما إنسانية عادة، لذلك فالمعاملات في التشريع الإسلامي تقوم على أساس عقائدي وأخلاقي إنساني، باعتبارها كيانات مؤثرة فيما هو إجتماعي وحضاري[52].

"فليست العقيدة في الإسلام مجرد عقيدة ميتافيزيقية غيبية لا علاقة لها بشؤون الدنيا، والنشاط الحيوي والتدبير السياسي، فقد جعل الإسلام العقيدة عنصرا أصيلا في التشريع بحيث لا يمكن فصل الكيان العقدي عن الكيان التشريعي العملي، فهما صنوان متلازمان ضمانا للخلفية الأخلاقية للنشاط الإنساني بوجه عام"[53].

" ولهذا المقصد العظيم بدأ الإسلام بالدعوة إلى إصلاح الاعتقاد الذي هو مبدأ التفكير الإنساني الذي يسوقه على التفكير الحق في أحوال هذا العالم "[54].

"وما الجيل الذي حمل على عاتقه رسالة الإسلام، ونشرها في أصقاع الدنيا إلا نتاج لتربية أساسها الوازع الديني الرصين، المبني على أصول عقدية متينة، ربّاه وبناء ﷺ في مكة طيلة ثلاث عشر سنة" ومن هنا ندرك سر القيمة التي خص بها (عالم الاجتماع) محمد ﷺ، الفضائل الخلقية باعتبارها قوة جوهرية في تكوين الحضارات "[55].

إن حديثنا عن المعتقد وما يدين به الإنسان، هو في الحقيقة حديث عن سلوكه وقيمه، وتصرفاته في الحياة، وتمثلاته وممارساته مع الآخر، وتفاعلاته داخل بيئته، وما ينبثق منها من شبكة علاقات اجتماعية وكل ذلك يعتبر ترجمة فعلية لما قرره سلطان المعتقد على القلب والجوارح يسير وفقها الإنسان وعلى منوالها، وأيّ إصلاح لا تنطلق بواعثه من الداخل موؤود لا محالة، فقوة الدفع المعنوية والروحية لكل عملية إصلاح مكمنها الباطن.

" إن إصلاح الباطن أساس لكل إصلاح ظاهري، ولا بقاء لإصلاح خارجي إلا إذا تركز وكان نتيجة وأثراً للإصلاح الباطني، ولعل قوله عليه الصلاة والسلام إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب» من أقوى العبارات المأثورة في تقرير القضية الطبيعية، قضية الضمير، وهي صلاح الظاهر نتيجة الصلاح الباطن".[56]

"ومن سداد التوجيه، أن التشريع الإسلامي يربط مشروعية الفعل بالملكات الباطنة، دون المادية الظاهرة وحدها، فالله تعالى إذ ينهى عن الفعل أو يأمر به إنما يقصد إلى تصريف الأفعال وتوجيهها على نحو يحقق أغراض الشارع جهد المستطاع، خلافا لما استقرت عليه معظم التشريعات الوضعية من ربط الشرعية بالمادية الظاهرة غالبا"[57].

إن السلوك المنبعث عن كل إنسان ما هو إلا انعكاس بما يدين به ويعتقده، وتأسيسا على ذلك، يمكن القول: يمكن القول أن: "الفكرة الدينية تؤدي دورها في حركة التاريخ، وعلى هذا فإن افتقاد هذا الوازع بعد أهم عوامل فشل عملية السلم، وبالمقابل فإنه كان من أكبر المؤيدات لنفوذ الشرع الدولي الإسلامي، وعدم خرق حرمته وحدوده إلا نادرا".[58]

وفي الأخير؛ أود أن أُلمع إلى شيء جوهري، وهو أني لا أمارس من خلال هذا الطرح عملية الجرح، فقد يتبادر إلى الذهن أنني أقدح في عقيدة المحاور المسلم أيا كان، بلى، فالمقصود؛ هو تذكيره وتمكينه من تجاوز ما ألفته نفسه واعتادت عليه من سلوك قد يتعارض ومتطلبات حوار حضاري هادف.

" فالمسلم لم يتخل مطلقا عن عقيدته، فقد ظل مؤمنا، وبعبارة أدق ظل مؤمنا متدينا، ولكن عقيدته تجردت من فاعليتها، لأنها فقدت إشعاعها الاجتماعي فأصبحت جذبية فردية، وصار الإيمان إيمان فرد متحلل من صِلاته بوسطه الاجتماعي"[59].

كما أنني لا أدّعي تلقين المحاور المسلم دروسا في العقيدة هو يملكها مسبقا، وإنّما المقصد من هذا الطرح هو " أن نردّ لهذه العقيدة فاعليتها وقوتها الإيجابية وتأثيرها الاجتماعي، وفي كلمة واحدة: إن مشكلتنا ليست في أن نبرهن للمسلم على وجود الله، بقدر ما هي في أن تشعره بوجوده، ونملأ به نفسه باعتباره مصدرا للطاقة"[60].

وهكذا أخلص إلى أن استثمار الجانب العقدي السليم و العمق الديني الصافي المتوغل في النفس البشرية، بإمكانه أن يشكل أحد أهم الوسائل الفعالة في تحقيق الأهداف المرجوة من الحوار الحضاري، كونه يشكل عنصر إلزام روحي لا يحتاج إلى رقابة لإرساء ضوابط و قواعد حوار الحضارات، فالعقيدة في الإسلام وإن كانت منطلقا للحقيقة الدينية، لا تعني معنى روحيا محضا بحيث ينفصل فيه سلوك الفرد و نشاطه الاجتماعي عن المعنى الديني و الخلقي كما هو الشأن في غيره من الثقافات والشرائع، فمن مبادئ الفكر الغربي وأبرزها، الغاية تبرر الوسيلة، ولا يخفى على أحد ما تولد عن هذا المبدأ من خوارم أخلاقية غير مسبوقة.

بل إن العقيدة في الإسلام تحكم الصلة بين كافة وجوه النشاط الإنساني و الدين، كما تحكم الصلة بين الدين والدنيا، و الدنيا والآخرة، حتى بات كل نشاط إنساني بوجه عام وحوار الحضارات بوجه خاص يؤول بهذا المعنى الى أن يكون عبادة، وعلى هذا، يُفسر قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنّ وَالإِنسَ إِلّا لِيَعْبُدُونِ﴾[61]، فمفهوم العبادة في التشريع الإسلامي كما نصّت عليه الآية الكريمة، يشمل كافة ما يصدر عن الإنسان من عمل طوال حياته؛ وبذلك يتجلى المعنى الديني لحوار الحضارات كنشاط حيوي من حيث روحه وغايته.

المبحث الثاني الضوابط العلمية للحوار

المطلب الأول تحديد مواضيع الحوار وضبط مصطلحاتها:

تعتبر مسألة الاتفاق على موضوعات الحوار و ضبط مصطلحاتها و تحرير مفاهيمها من أهم الخطوات لنجاح أي حوار حضاري، فالذي ينبغي على جميع الأطراف المتحاورة، وضع قائمة تضم مجموعة من الموضوعات مع ضبط مصطلحاتها قبل الحوار بحسب القضايا المطروحة، ثقافية أم سياسية أم اقتصادية أم دينية...، و الغاية من ضبط المفاهيم هو تقريب وجهات النظر حولها، ف" لم يكن اختلاف الناس في الرأي، و اختلافهم في تطبيقه، إلا وليد الاختلاف في تحديد مفاهيم الأشياء، و مدلول الكلمات و المصطلحات، و لم يكن قيام المذاهب الفلسفية و الدينية و السياسية، و لم تكن التبعية لها، والجحود عليها إلا نتيجة الاختلاف في الرأي وفي تطبيقه".[62]

فعدم تحديد المصطلحات موضوع الحوار كثيرا ما يؤدي إلى انقطاعه بسبب الاختلاف في ضبطها، أو يستمر الحوار و لكن بخطين متوازيين لا يلتقيان أبدا، " وهذه البلبلة في عالم المفاهيم تؤثر على سير الحوار، الأمر الذي يتطلب من كل باحث أو كاتب ان يحدد مفاهيمه قبل الدخول في صلب الموضوع. لذلك يقتضي الامر قبل البدء بالحوار ان يحدد كل طرف معنى المصطلح او المفهوم الذي يستخدمه لغرض أن يعرف الطرف الآخر اسلوب تفكير الآول والغايات الفكرية أو العلمية التي يسعى إليها"[63].

" فقد يحصل في الذهن هيئة واحدة إجمالية فيختلفون في تسميتها بحسب اللغات والاصطلاحات المتعارفة عندهم، وفي شرحها بحسب المعاني المهمة لهم والخوض والاقتصار منهم، وفي تصورها بعبارات مختلفة قرباً وبعداً على قدر بلاغتهم...، وتقع تمثيلات مختلفة وفيها تقريب من وجه وتبعيد من وجه وإبهام في القدر الجامع وذلك لكونها أبلغ في سليقة القائل أو لتفنن في العبارة، ويقع صرف عن الظاهر لضيق العبارة كوضع الترتيب الزماني موضع الرتبي والمصاحبة الزمانية موضع المصاحبة الواقعية، ويكون الواقع عند الكل شيئاً واحداً وبعد ذلك مقام لتفتيش المستعملات والاصطلاحات."[64]

فإذا كان الأمر كذلك فإن " أول ما يجب البداية به، بيان الحدّ ومعناه لتتحقق خواص حقائق العبارات وحدودها، إذ يتم تحقيق النظر لمن لا يكون مستوفياً لمعاني ما يجري من أهل النظر في معاني العبارات وحقائقها على التفصيل والتخصيص معرفة على التحقيق، فتكون البداية إذا نذكرها أحق وأصوب "[65].

وهذا الضابط العلمي ليس جديدا على الفكر الإسلامي، فقد نصّت العديد من الآيات القرآنية على ضرورة العلم والإحاطة بالمسائل الحوارية والجدلية، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾[66]، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تقف ما ليس لك به علم﴾[67] وهو نهي صريح عن الخوض في مواضيع يجهلها الذي ينتصب للحوار، يقول صاحب **الظِّلال** في حق هذه الآية "ولا تتبع ما لم تعلمه علم اليقين، وما لم تتثبت من صحته من قول يقال ورواية تروى، من ظاهرة تفسر أو واقعة تعلل، ومن حكم شرعي أو قضية اعتقادية. هذه الكلمات القليلة تقيم منهجا كاملا للقلب والعقل، يشمل المنهج العلمي الذي عرفته البشرية حديثا جدا، ويضيف إليه استقامة القلب ومراقبة الله "[68].

إن تحديد موضوعات الحوار وضبط أصولها وتحرير مضامين مصطلحاتها والتنقيب عن نقاط الاتلاف والاختلاف في معانيها، مقوّمات أولية أساسية بالنسبة لأي حوار جاد وهادف، بحيث تمكّن من ايجاد قاموس فكري إنساني مشترك بين الفرقاء المتحاورين، مما يساعد في نفض الغبار عن الكثير من المفاهيم التي قد تكون مغلوطة أو غامضة الدلالة والمفهوم، أو ثم تحويرها وليّ مبانيها عن قصد أو غير قصد.

ف" موضوع الحوار هو جوهر الحوار، وتحديده يكتسب في بداية الأمر الأهمية العظمى، وكلما جرى الاتفاق على ذلك كان الحوار معلوما وواضحا للأطراف المشتركة فيه أو للمراقبين، وليس من الضرورة أن تكون الموضوعات معاصرة، فاختيار الموضوعات المستقلة يكتسب الآن أهمية حتى من دوائر وخبراء منظمة الأمم المتحدة وهيئاتها الدولية المتخصصة"ـــ[69]

وكلّ ما فيه المصلحة للفرد والمجتمع، يصلح أن يكون مجالاً للحوار، "وكل ما يحقق المنفعة للمجتمع الإسلامي، جدير بأن يكون موضوعاً للحوار، فلا يقتصر الحوار على موضوع دون آخر، مادامت المنافع والمصالح هي محورَه الرئيسَ ومجاله الحيويّ، فهو يتناول الموضوعات جميعاً، ويشمل كلّ القضايا ذات الصلة بحياة المجتمع في حاضره ومستقبله، ويغطّي شتى الموضوعات التي ترتبط بجميع مناحي الحياة سياسياً واقتصادياً، ثقافياً وعلمياً، تربوياً وفكرياً، ويستجيب للحاجات الضرورية التي تفرضها طبيعة العلاقات الثنائية والمصالح المتبادلة"[70].

" فالواجب على من يتصدى للحوار أن يكون على بينة من الموضوع الذي يحاور فيه، حتى لا يكون بعيداً عن منطق المعرفة والموضوعية في عملية التحاور... كما أن عليه أن يكون مسلحاً بالثقافة المضادة التي يملكها الطرف الآخر ليسهل عليه الوقوف على نقاط الضعف والقوة عند خصمه، وليستطيع الموازنة والمفاضلة بين الفكرتين بمنطق العقل والعلم والدليل."[71]

إن موضوعات الحوار الحضاري لا حصر لها، ما دام المقصد منها هو ودرء المفاسد وجلب المصالح التي تعود بالنفع على المجتمع الإنساني، وبناء على كل هذه المعطيات فإن السّداد في تحديد موضوعات الحوار والإلمام بها رهين بالتعرف على الواقع الذي يعيشه المجتمع الإنساني، ولا يتأتى ذلك إلا من خلال الإحاطة بالنوازل وفقه الواقع والاعتراف بالاختلاف

فمسألة الوقوف على الواقع، والإلمام بالقضايا المعاصرة، ومعرفة واقع الناس وطبائعهم جدير بتحديد أولويات موضوعات الحوار التي تناسب هذا الواقع، حيث تكون قضايا الحوار مناسبة للواقع الحياتي من ناحية، وواقع المتحاورين من حيث أفكارهم وتخصصاتهم، ومدى فاعليتهم لتدبير الاختلاف الحاصل في المجتمع البشري واستثماره في ثراء الحضارة الإنسانية من ناحية ثانية، وهو ما يؤكده **أبو حامد الغزالي** بقوله " فلا يناظر إلا في مسألة واقعة أو قريبة الوقوع غالباً"[72].

فمن المسلمات أنه إذا كان الواقع غير معلوم بشكل كلي، فالهدف الموضوع سيكون هدفاً وهمياً كسراب بقيعة لا ينتمي لحقيقة واقعة، فكيف إذن تنجح مهمة بغير هدف واضح أو ضعف في فقه الواقع، سواء ضعف في فقه الواقع السياسي، أو فقه في الواقع الاقتصادي أو غيرها من أنشطة التغيير الاجتماعي.

و " المتأمل لأشكال الخطاب، وأنواع الفعل الدعوي المعاصر بأبعاده المختلفة: تنظيمياً، وتربوياً، واجتماعياً، وثقافياً، وسياسياً، لا يجد كبير عناء في الوصول إلى استنتاجٍ مؤسفٍ مفادُه: ضعف حضور فقه الواقع في الأوراق والتصورات، وفي البرامج والخطط، وفي الأنشطة والأعمال. هذا الضعف يؤثر لا محالة على مردودية العمل، يَسِمُهُ بسمة الارتجال والعفوية، ويقلل من ثماره ونتائجه في الواقع"[73].

فضعف الفقه بالواقع" آفة مستشرية لدى النخب العلمية والدعوية التي يعول عليها في مشروع التغيير، ويعتقد أنها وقود حركة النهضة، ولم يشفع لدى هذه النخب، الحضور المركزي لفقه الواقع في التكون التاريخي للعلوم الشرعية التي هي عماد المعرفة لديهم، ولعل أحد الأسباب المهمة، هو بعد العهد عند المسلمين اليوم بالسياق الذي تشكلت فيه هذه العلوم، والتي ينظر إليها اليوم جاهزة ومنتهية بمعزل عن هذا السياق "[74].

فلا سبيل إذن إلى فقه الواقع إلا بتعبئة شاملة وتكامل بين الأفراد والمؤسسات وهو ما عبّر عنه **البوشيخي** ب " إحكام أمر الأداة: أدمغة وأجهزة ومؤسسات ومنهجا في التوثيق والتدقيق والتحقيق، يقوم على الاستيعاب والتحليل والتعليل قبل أي تركيب، مقدما عند الدراسة الوصف على التاريخ، والجزئي على الكلي الى آخر ما يجب إحكامه من أمر الأداة لتامين ذلك المستوى، كما لا سبيل الى فقه الواقع بغير التمكن من مكونات الوضع الموضوع والتتبع الأفقي والعمودي لما يجري في الظرف المعيشي ويتفاعل في المجال."[75]

لقد أمسى حوار الحضارات ضرورة واقعية، ونجاحه مرتبط بالواقع ارتباطا وثيقا، فلا يمكننا تصور تحصيل ثمراته بمعزل عن فقه بالواقع، إذ يشكل الواقع بكل مظاهره وتجلياته مناط التغيير، وهو ليس وليد لحظته الآنية، وإنما هو عبارة عن تراكم تاريخي؛ فلابد من اعتبار التجربة التاريخية، ولابد من استحضار السياق التاريخي باعتبارهما مدخلا اساسيا لفقه الواقع.

على أن فقه الواقع في عملية حوار الحضارات ليس مقصودا لذاته وإنما المقصود منه هو الانفتاح على موضوعات حوار الحضارات من أجل نجاح العملية الحوارية والفعل الحواري مع المخالف وفقا للقاعدة المقاصدية الشرعية التي عبّر عنها الإمام الشاطبي في موافقاته بقوله: " كل علم لا ينبني عليه عمل فهو باطل شرعا "[76]، وعليه فإن فقه الواقع ينبغي أن يكون مدخلا نحو إنجاز فعل حواري حضاري فاعل وراشد.

وفي الختام أقول؛ إن الذي ينبري لحوار الحضارات في الفكر الاسلامي ينبغي أن يكون على قدر كاف بالموضوعات والمفردات التي تشكل أرضية وفروض الحوار، وهذا الأمر لا يستتم إلّا من خلال الوعي التاريخي الذي يمكّنه من فقه صحيح للواقع وإنجاز واعي وراشد أساسه الموضوعية والحيادية.

المطلب الثاني نبذ التعصّب للرأي ومبدأ الخيرية.

لا شك أن تبني مبدأ الخيرية والاستبداد بالرأي والتعصب له والادعاء باحتكار الحقيقة المطلقة ونفي نسبيتها، يعد من مظاهر التخلف الفكري و الشدود السلوكي والانتكاس الفطري و الفساد العقدي، حيث تشكل هذه المظاهر اللاعلمية واللاحضارية أهم العوائق و العقبات في سيرورة ونجاح أي حوار حضاري فاعل، فلا غرو أن تكون النتائج سلبية في ظل تبنّي مثل هذه المعضلات العلمية ما دام مصدر ابتداع الخيرية هو عدو الله إبليس حين عصى أمر الله بأن يسجد لآدم فقال﴿ قال أنا خير منه خلقتني من نار﴾[77] فلم يتراجع عن موقفه رغم علمه بغضب الله عليه، وتمادى في التعصّب لرأيه رغم تيقنه من عظمة زلّته مع ربّه، بل إنه استرسل واستطرد في تماديه حتى أنه قال ﴿ قال رب فأنظرني الى يوم يبعثون﴾[78]فلازالت هذه الصفات المذمومة تفتك بكل مظاهر التساكن والتعايش التي يُتيحها الحوار عموما.

إن معضلة التعصّب للرأي ما هي إلا نتاج سلوكي متولّد عن تضخيم الأنا والتمركز على الذات، مع غياب استحضار نسبية الحقيقة في ذهنية المحاور كقيمة مؤسسة للبعد الإنساني ومحققة للبعد الحضاري، هذه الأخيرة مقررة شرعا تبعا للمنهج القرآني الذي يجعل المتحاورين متساويين بدءا من امتلاك الحقيقة كما في قوله تعالى: ﴿وإنا أو اياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين ﴾[79]، وهي في الحاصل تجليات لسوك نرجسي منبوذ ينغبي تخلية النفس منه.

ف" من الضرورة بالنسبة لأطراف الحوار لكي يصبح حوارهم علميا وفعالا أن يتخلوا عن سياسة تعظيم الأنا أو تضخيم الذات لسبب بسيط مفاده أن هذه السياسة غير مجدية وليس هناك من سبب منطقي واحد يبرّر اعتناقها من قبل فرد يحترم إنسانيته وشخصيته كما يحتم إنسانيات وشخصيات الآخرين".[80]

ثم إن " الحوار يصعب مع المحاور المتعصب لرأيه تعصبا أعمى، فهو جامد عند أفكاره ورافض لكل فكر نقيض ـــإذ أنه يستخدم مفاهيم غير مقبولة في الأفكار الأخرى، كما أنه يستعمل معايير ومقاييس غير مقبولة إلّا في ظل فكرة المتعصب"[81].

إن لجوء المحاور إلى نُصرة رأيه بحق أو بغير حق، و رؤية الآخر من منظار معتم أو ضيق أو متجاهل لرؤيته، مُتهكم على حريته في التعبير والتفكير، قد يدفع بصاحبه إلى الكبر و التزام الباطل فيما ينافح عنه و " ينصرُ ما عَقَدَ عليه نيّتَهُ واعْتَقَدَهُ بغير برهان، فلا يبالي بما نصره من حق أو باطل، أو محالٍ أو مكابرة، أو أذى، وكذلك لا تجده اعتقد ما اعتقد إلا إلْفًا أو تقليدًا أو شهوةً، دون تحرّي حق ولا

مجانبة باطل" [82].ونظرا لخطورة آفة التعصب للرأي، فقد ورد في الأثر ما يُحذّر من هذا السلوك المُشين، ونلمس ذلك في **قوله صلى الله عليه سلم** ((... إذا رأيت شُحاً مطاعاً وهوى متبعاً وديناً مؤثرة وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بخاصة نفسك))[83].

وفي ذم التعصب ولو كان للحق، يقول **الإمام الغزالي"** إن التعصّب من آفات علماء السوء، فإنهم يُبالغون في التعّصب للحقّ، وينظرون إلى المخالفين بعين الازدراء والاستحقار، فتنبعث منهم الدّعوى بالمكافأة والمقابلة والمعاملة، وتتوفر بواعثهم على طلب نُصرة الباطل، ويقوى غرضهم في التمسك بما نسبوا إليه. ولو جاؤوا من جانب اللطف والرحمة والنصح في الخلوة، لا في معرض التعصّب والتحقير لأنجحوا فيه، ولكن لمّا كان الجاه لا يقوم إلا بالاستتباع، ولا يستميل الأتْباع مثلُ التعصب واللعن والشّتم للخصوم، اتخذوا التعصب عادتهم وآلتهم وسمّوه ذَباً عن الدّين ونضالاً عن المسلمين وفيه على التحقيق هلاك الخلق"[84].

أخلص ممّا سبق؛ إلى أن معضلة التعصب للرأي أو الاستبداد الفكري والنظر إلى المخالف نظرة استخفاف وازدراء سلوكات إقصائية غير حضارية، كما أنها ـــــ سلوكات ـــــ مخالفة لسنّتي الاختلاف والتعارف التي نصّ عليهما التشريع الإسلامي، وهي تجسيد قح للفكر الفرعوني الإقصائي الذي يلغي الآخر ويلغي الحوار معه، قال تعالى﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾[85].

إن هذه النظرية الفرعونية القمعية أو ما يصطلح عليه اليوم، بسيكولوجية أحادية الرؤية، هي نظرية تسير وفق خط بياني يبدأ منها وينتهي، وهي متى ظهرت فهي دليل على أن صاحبها تسيطر عليه رؤية التشتت الفكري و الوجداني و الجنوح عن الرشد، لقوله عز وجل في حق فرعون، ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾[86]، فالرشد كلّه في التخلي عن التعصب للفكر والرأي والجنوح للحوار مع المخالف. إن مُتبنّي مبدأ الخيرية ﴿ أنا خير منه﴾ الذي يعدّ مبدأ شيطانيا كما سلف ذكره في مستهل هذا المبحث، ومُتبنّي النظرية الفرعونية ﴿ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ﴾ هم عندي؛ مريدوا الشيطان وهم عيال للفكر الفرعوني في نظريته، وهم وخرجوا تلكم المدرسة العقيمة بفهم سطحي وفكر سلبي لا يعدو أن يكونوا نسخا متكررة لا تنهض بالتبعات ولا تبني الحضارات.

إن التعصب للرأي حجاب صفيق بين المرء والحق، وعائق عن العمل بالدليل، وعقبة في طريق التعارف والتثاقف والاستفادة من صواب المخالف، فعدم الانفتاح على الرأي الآخر والتمركز على الذات يؤدي حتما الى ضيق الافق الفكري وجمود الشهود الحضاري.

المبحث الثالث الضوابط الأخلاقية

لا يستطيع الإنسان أن يعيش بدون أخلاق وآداب، فهو الكائن الوحيد في هذا الوجود الذي في وسعه أن يرتقي من سلطان الحاجات الطبيعية الصرفة، إلى حيز الأخلاق والقيم والآداب، ومن ثم قيل إن الانسان حيوان أخلاقي، من هنا جاءت أهمية دراسة الأخلاق في هذا المحور من البحث، فإنها ليست مجرد دراسة وإقحام لنظرية جافة منفصلة عن النشاط الانساني، وإنما هي دراسة مرتبطة ارتباطا وثيقا بحوار الحضارات.

وتقتضي الضوابط الأخلاقية للمحاور في حواره السليم أن يتحلى بفضائل أخلاقية ويطبقها في حياته الخاصة والاجتماعية، كما يتعين عليه النأي عن الرذائل. وهي من صميم التشريع الإسلامي، إذ تُعدُّ الأخلاق من أهم مقوماته، لذلك وصف الله تعالى حبيبه ﷺ بالخلق العظيم، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[87]، وقال تعالى ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾[88] فرسول الله ﷺ هو النموذج البشري الذي ارتضاه الخالق لأن يكون قُدوة يحتذى بها. " يا مَنْ له الأخلاق ما تهوى العلا منها وما يتعشّق الكبراء"[89]

فعلى المحاور الاقتضاء بأخلاقه ﷺ، فقد كانت أخلاقه " سائر الأخلاق العَلية، والآداب الشرعية من الدين، والعلم، والحلم، والصبر، والشكر، والعدل، والزهد والتواضع، والعفو، والعفّة، والجود، والشجاعة، والحياء، والمروءة، والصّمْتِ، والتُؤَدة، والوقار، والرحمة، وحُسْن الأدب، والمعاشرة، وأخواتها، وهي التي جِمَاعُها حُسْنُ الخُلقِ"[90].

كما قُدِّمت الصفات الأخلاقية الفعلية منها و القولية لعباد الرحمان في معرض الحديث عن سماتهم وصفاتهم قبل غيرها من العبادات: قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾[91].

ومما يميز الأخلاق في الإسلام أنها تنشأ مع العقيدة، وتسري في العبادات، وتتمثل في المعاملات، وبذلك فالإسلام نظام كامل شملت الأخلاق فيه كل جوانب حياة الإنسان.

"والأخلاق كلها، الجميل منها والقبيح هي مكتسبة، ويمكن للإنسان متى ما لم يكن له خلق حاصل أن يُحصّل لنفسه خلقاً"[92]، " ولو كانت الأخلاق لا تقبل التغيير لبطلت الوصايا والمواعظ والتأديبات، ولما قال رسول الله حسنوا أخلاقكم "[93].

" وقد يكون من هذه الأخلاق ما هو في الغريزة، وأصل الجبلة لبعض الناس، وبعضُهم لا تكون فيه، فيكتسبها، ولكنه لا بد أن يكون فيه من أصولها في أصل الجبلة شعبة، وتكون هذه الأخلاق دنيوية إذا لم يُرَد بها وجه الله تعالى، والدار الآخرة؛ ولكنها كلها محاسن وفضائل باتفاق أصحاب العقول السليمة، وإن اختلفوا في موجب حسنها وتفضيلها "[94].

وعموما فإن "علم الأخلاق الديني يعتمد على الوحي السماوي، ونقطة انطلاقه هي الدين مسيحياً كان أم يهودياً أم إسلامياً، وعلى ذلك فالأخلاق الدينية لا ترى هناك حاجة إلى البحث العلمي في أساس الخير والشر والفضيلة والرذيلة، إذ أن الدين قد وضع فعلا المبادئ الخلقية التي يجب على المؤمن الالتزام بها حتى يكون فاضلا "[95].

وممّا لاريب فيه، أن قانون التحلل عام يسري على كل ما هو موجود، مادي أو معنوي، والأخلاق ليست بمنأى عن هذا الناموس الإلهي، فهي تحتاج إلى تحيين أخلاقي مرجعه مصدرا الوحي، ومشكلة المجتمع البشري اليوم هي مشكلة أخلاقية، وإن لم يتدارك المجتمع الدولي اندحار الأخلاق والقيم الراقية من خلال الاشتغال على بثها وتحيينها، فلا غرو أننا سنشهد قريبا غير بعيد اندثار الحضارة الإنسانية، وقد سجل التاريخ العلاقة الإستلزامية بين بقاء الأمم والأخلاق والقيم، وصدق أمير الشعراء **أحمد شوقي*** حينما قال:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

صلاح أمرك للأخلاق مرجعه فقوم النفس بالأخلاق تستقم

إذا أصيب القوم في أخلاقهم فأقم عليهم مأتما وعويلا

ولعل هذا الطرح هو ما دفع بالمفكر **والفيلسوف المغربي طه عبد الرحمان** إلى الاستغراب والاستنكار من أن الاشتغال العام بالحداثة يتعلق بالأشكال المادية أكثر مما يتعلق بأشكالها المعنوية، مثل حداثة القيم وحداثة الأخلاق وحداثة الروح، والمقصود بالحداثة الأخلاقية عنده أنها "مشروع سلوكي شامل مبدع يحول الانفصالات القاطعة الى انفصالات واصلة ويحول حقوق الغريب على الغريب الى حقوق القريب على القريب"[96].

في ضوء هذا الإدراك، سأتطرق إلى فرعين رئيسيين فقط بخصوص سلوك المحاور المتمثل بالفضائل ومجانبة الرذائل التي يجب عليه الانضباط بها لكي يكون حواره حضاريا مقبولا، بغض النظر عن طبيعة الأراء و الأفكار التي يطرحها المحاور الآخر، إذ يعزّ الإحاطة

بجميع الشمائل من استقامة وتواضع و...، وبالنظر إلى سعتها، سأكتفي بأبرزها بحسب ما بدى لي منها من أولوية، ومن أبرز تلك الشمائل الحوار و والدفع بالتي هي أحسن و حسن الاستماع.

المطلب الأول حسن الاستماع

يعتبر تخليق الحوار من المداخل المهمة لإرساء دعائم حوار الحضارات، وهو يتوقف على حسن الاستماع وأدب الانصات وتجنب المقاطعة للحديث.

ويشير مصطلح السمع، في الحقيقة الى حاسة من حواس الانسان الخمس التي تولد معه ولا يتعلمها أو يكتسبها، وهو بهذا المعنى استقبال الأذن أو التقاطها لذبذبات صوتية من مصدر معين دون إعارتها أي انتباه مقصود ومعتمد لها، وهي بذلك؛ عملية فيزيولوجية صرفة تعتمد على سلامة الاذن عضويا.

والاستماع في اصطلاح الجمعية الدولية للاستماع هو "عملية عقلية وإدراكية، نعطي فيها كمستمعين اهتماما خاصاً وانتباها مقصوداً وتركيزا فائقا، ونية حقيقية لما نسمعه من أصوات بقصد إدراكها وفهم دلالاتها ومعانيها بهدف تفسيرها "[97].

وعندما نتحدث عن الاستماع فإننا نتحدث عن المرحلة الثانية لمهارة الاصغاء، باعتبار أن السماع هو المرحلة الأولى، وقد ميز **أبو هلال العسكري** بين السمع والاصغاء والاستماع، إذ قال:" الفرق بين السمع والإصغاء أن السمع هو إدراك المسموع والسمع أيضاً اسم الآلة التي يسمع بها، والإصغاء هو طلب إدراك المسموع بإمالة السمع إليه يقال صغا يصغو إذا مال وأصغى غيره وفي القرآن: ﴿ قَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ أي مالت، وصَغْوك مع فلان أي ميلك. أما الفرق بين السمع والاستماع أن الاستماع هو استفادة المسموع بالإصغاء إليه ليفهم؛ ولهذا لا يقال إن الله يستمع، وأما السماع فيكون اسماً للمسموع يقال لما سمعته من الحديث هو سماعي، ويقال للغناء سماع، ويكون بمعنى السمع تقول سماعاً، كما تقول سمعت سمع سمعاً، والتسمع طلب السمع مثل التعلم طلب العلم."[98].

قال القرطبي في تفسير قوله تعالى ﴿ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾[99] " فيه مسألة واحدة قال ابن عطية: وحدثني أبي- رحمه الله ــ قال سمعت أبا الفضل الجوهري رحمه الله تعالى يقول لما قيل لموسى صلوات الله وسلامه عليه ﴿ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾ وقف على حَجَر، واستند إلى حجر، ووضع يمينه على شماله، و ألقى ذقنه على صدره، ووقف يستمع، وكان كل لباسه صوفاً. قلت حُسنُ الاستماع كما يجب قد مَدَحَ الله عليه، فقال ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ ﴾[100] وذم على خلاف هذا الوصف، فقال﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ ﴾[101]، فمدح المُنصت لاستماع كلامه مع حضور العقل، وأمر عباده بذلك أدباً لهم، فقال ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْءَانُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [102]وقال هاهنا ﴿ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾ لأن بذلك يُنال الفهم عن الله تعالى"[103].

ويقول رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾[104]"أي: سماع إصغاء وتفهُّم، وإرادة الحق، وهم المؤمنون الذين يقبلون ما يسمعون، فينتفعون به ويعملون"[105]، وذكر القرطبي أيضًا أنه رُوِيَ عن وهب بن منبه أنه قال: "من أدب الاستماع سكونُ الجوارح وغضُّ البصر، والإصغاء بالسمع، وحضور العقل، والعزم على العمل، وذلك هو الاستماع كما يحب الله تعالى؛ وهو أن يكفّ العبد جوارحه، ولا يشغلها، فيشتغل قلبه عما يسمع، ويغض طرفه، فلا يلهو قلبه بما يرى، ويحصر عقله، فلا يحدِّث نفسه بشيء سوى ما يستمع إليه، ويعزم على أن يفهم فيعمل بما يفهم"[106].

لقد تنبّه الرعيل الأول من رواد الفكر الإسلامي لفضيلة حسن الإستماع ودوره في إنجاح عملية الحوار، فنجد أن الإمام الشافعي يشترط أن يتطبع العالم بهذا الخلق الحسن، يقول الشافعي: " ولا يمتنع من الاستماع ممّن خالفه، لأنه قد يتنبّه بالاستماع لترك الغفلة، ويزداد تثبيتًا فيما اعتقد من الصواب "[107].

من الآثار الإيجابية لآداب حسن الاستماع التي يمكن استقائها من كلام المَطّلبي، فضل التنبه وقوة الاستشعار والالتقاط، وتجنب الغفلة وترك الوهم، وهذه المزايا لا تزيد المحاور سوى التيقن من صحة ما اعتقده وخاله صوابا، إذ بعد الاستماع الجيّد للمخالف، يتبين جليا المنهج والسبيل المعرفي والعلمي الذي سلكه، فيسهل بذلك معالجة موضوع الحوار واستحضار البراهين والدلائل المساعدة على تحقيق الحق والرشاد في المسألة.

كما أن الإمام الشافعي وظّف ترسانة من مصطلحات الفقهاء والمحدثين، كمفهوم التثبت والتيقظ والامتناع، نظرا لما تحوي هذه الألفاظ من شحنات إيجابية تنعكس على أداء المحاور أثناء حواره.

وفي نفس السياق؛ بادر ابن القفع في آدابه إلى التأكيد على فضيلة حسن الاستماع، إذ قال: " تَعَلم حُسْنَ الاسْتِمَاعِ كما تَتَعَلّم حُسْنَ الكَلامِ فإن الاستماع امهال المتكلم حتى يستوفي حديثه وقله التلفت الى جوابه والاقبال بوجهك ولحظك على لفظه."[108]

من مقتضيات حسن الاستماع؛ إعارة الاهتمام لما يعبّر عنه المتحدث والإقبال عليه، فعن "عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يقبل بوجهه وحديثه على أشر القوم يتألفهم بذلك فكان يقبل بوجهه وحديثه عليّ حتى ظننت أني خير القوم.."[109].

ومن مقتضياته؛ إمهال المتكلم حتى ينقضي حديثه، وعدم قطع كلامه، وفي هذا السياق يصرّح ابن المقفع عن ذلك قائلا "واعلمْ، في ما تُكَلّمُ به صاحبَكَ، أَنّ مما يُهَجّنُ صوابَ مَا يَأْتي به، ويَذهَبُ بطعمه وبَهْجَته ويُزْري به في قَبوله، عَجَلَتَكَ بذلكَ، وقَطْعَكَ حديثَ الرّجُلِ قَبلَ أَنْ يفضي إليك بذات نفسه."[110]

وفي المقابل ينبغي للمحاور الانقطاع عن عملية الحوار مع المخالف إذا ظهر له ما يدل على عدم إقباله وانشغاله عنه، يقول المرادي الحضرمي: "اقطع كلامك عمن لا يقبل عليك ببصره ويصغي (ينصت) إليك بسمعه ويفهم عنك بذهنه وإياك أن تفعل ذلك بأحد مخاطبيك."[111]

إن حسن الاستماع هو أساس كل خير مصداقا لقوله تعالى: ﴿ ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم﴾ فالسماع الجيّد يقود إلى فتح القلوب، واحترام الرجال وتقدير المُخالف، وتحديد نقاط الخلاف وأسبابه، و حسن الاستماع، تسلم فيه الأفكار من التشتت والرئة من الانفلات، كما يُشْعِرُ بجدّية المُحاور، وأهمية الحوار. كما يعتبر ـــــ حسن الاستماع ـــــ من أهم الأليات الممهدة للحوار بالتي هي أحسن، ومن ثم يتوجه الجميع إلى تحصيل الأهداف المرتقبة من حوار الحضارات.

فإلى أي حدّ يمكن أن يُسهم الحوار بالتي هي أحسن في دفع عجلة حوار الحضارات إلى الأمام؟ وما هي مشروعيته، وحكمه؟

المطلب الثاني الحوار بالتي هي أحسن

يعتبر الحوار بالتي هي أحسن من الضروريات الشرعية، والمبادئ الأخلاقية، والحتميات الإنسانية، والخيارات المنهجية لمد جسور التواصل بين بني الانسان وتخليق عملية حوار الحضارات استنادا على تلكم المطالب؛ الشرعية والأخلاقية والإنسانية والحضارية، فهو ليس أمرا موسميا، بل هو من أصل التشريع الإسلامي ومن مقتضيات العلاقات الإنسانية.

لقد انبعثت الدعوة إلى الحوار بالتي هي أحسن في الأساس من القرآن الكريم في توجيه إلهيّ إلى رسله عليهم أزكى الصلاة والتسليم، ونلتمس ذلك ممّا تضمنه القرآن ومن حوارات عملية بمختلف المستويات.

وكانت سُنّة النبي ﷺ الله من أقوال وأفعال وتقارير وفي غزواته وحواره مع مخالفيه ابتدائهم بالحسنى، إلا إذا صدر منهم نقد للعهد أو غدر كما حصل مع يهود المدينة، والدليل كذلك محاورته مع وفد نصارى نجران، وقد استمرت أياماً حتى نزلت آية المباهلة فدعاهم إليها فخافوا وقبلوا بالجزية

وفي مشروعية الحوار بالتي هي أحسن، يقول عز وجلّ: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[112]، قال **ابن كثير** في تفسير هذه الآية: " وقوله:﴿ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي: من احتاج منهم إلى مناظرة وجدال فليكن بالوجه الحسن برفق ولين وحسن خطاب."[113]

ومن الحوار بالتي هي أحسن؛ ما أورده صاحب الظلال بأن يكون " بلا تحامل على المخالف ولا ترذيل له وتقبيح، حتى يطمئن إلى الداعي ويشعر أن ليس هدفه هو الغلبة في الجدل، ولكن الإقناع والوصول إلى الحق، فالنفس البشرية لها كبرياؤها وعنادها، وهي لا تنزل عن الرأي الذي تدافع عنه إلا بالرفق حتى لا تشعر بالهزيمة، وسرعان ما تختلط على النفس قيمة الرأي وقيمتها هي عند الناس، فتعتبر التنازل عن الرأي تنازلاً عن هيبتها واحترامها وكيانها، والجدل بالحسنى هو الذي يطامن من هذه الكبرياء الحساسة، ويشعر المجادل أن ذاته مصونة، وقيمته كريمة، وأن الداعي لا يقصد إلا كشف الحقيقة في ذاتها، والاهتداء إليها"[114].

أمّا عن حكم الحوار بالتي هي أحسن مع المخالف في المعتقد والثقافة فهو على ضربين: منه ما هو فرض عين، ومنه ما هو فرض كفاية.

يقول **شيخ الإسلام ابن تيمية:** " الدعاء إلى سبيل الرب بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن ونحو ذلك مما أوجبه الله على المؤمنين فهذا واجب على الكفاية منهم، وأما ما وجب على أعيانهم فهذا يتنوع بتنوع قدرهم وحاجتهم ومعرفتهم."[115] وفي نفس السياق، يعرّج **الطاهر بن عاشور** قائلا: "والمعنَى: إذا ألجأتْك الدّعوةُ إلَى مُحاجة المشركينَ فحاججهمْ بالتي هي أحسن، والمُفضّلُ عليه المحاجّةُ الصادرة منهمْ، فإن المُجادلةَ تقتضِي صدورَ الفعل من الجانبين، فَعُلِمَ أَنّ المأمُورَ به أن تكون المُحَاجة الصّادرةُ منه أشدّ حُسنًا من المُحَاجّةِ الصادرَةِ منهم، كقولِه تَعَالَى: ﴿ادْفَعْ بِالّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾."[116]

وقاعدة الحوار بالحسنى في التشريع الإسلامي عامة مطردة مع جميع الناس، لا يستثنى منها بنص الآية **إلا** من كان ظالما، فيخرج الجدال معه عن مسمى الجدال بالتي هي أحسن، لقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ وينتقل الخطاب معه إلى مجادلة بغير التي هي أحسن والسبب؛ " بأن أفرطوا في المجادلة ولم يتأدبوا مع المسلمين، فلا بأس بالإغلاظ عليهم والتخشين في مجادلتهم".[117]

ومن الوارد؛ أنه ليس بالضرورة أن يُثمر الفعل الحواري مع المخالف إلى تقارب وجهات النظر، وحتى لا يتحوّل الحوار الجدال عقيم وتعصب للرأي سقيم ينسف كل أجواء التعارف والتساكن، نجد القرآن الكريم يُعبر عن تدبير هذه المرحلة بالانتقال من مبدأ الحوار بالتي هي أحسن، إلى مبدأ الدفع بالتي هي أحسن، لقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾[118].

فلا يفهم من الدفع بالتي هي أحسن ترك الحوار، أو التخلي عن بيان الحق والذبّ عنه، ولكن المقصود به هو الزيادة في التخلّق والحلم والتعامل برفق مع المخالف، وقد جاء في الخبر الصحيح عن سيّد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم قوله (الرِّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَلَا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ)[119]

فلا غرو إذن، أن يكون من ثمرات الدفع بالتي هي حسن، تحوّلٌ المخالف الذي قد يصل على درجة العداء إلى وليّ حميم كما جاء بمنطوق الآية، وتأمّل معي روعة الأسلوب البلاغي في توظيف القرآن الكريم للأداة ـــــ إذا ـــــ الفجائية التي تفيد في اللغة، " وقوع أمر مفاجئ غير متوقع تماما"[120]، فبعد أن كان المخالف بعيدا عدواً، صار قريباً حميماً.

خاتمة: أخلص في هذه الدراسة؛ إلى أنه إذا كانت الضوابط المشار إليها ذات أنساق معيارية و أبعاد قيمية مختلفة؛ فمنها ما هو شرعي، و منها ما هو علمي، ومنها ما هو أخلاقي فإن ذلك لا يعني استقلال كلٍّ منها ببنيته و استفائه بمضمونه، بل إنها تتكامل فيها بينها وتنسجم لتشكل لنا وحدة المنظومة الفكرية والثقافية التي يتأسس عليها الحوار في الفكر الاسلامي.

وفي أعلى سلّم، يساعد هذا التكامل على استشراف نتائج الحوار الحضاري في الفكر الإسلامي باعتبار شمولية هذه الضوابط و تأطيرها لنواحي فكرية ومعالجتها لنواحي وجدانية.

وكذلك يُعبِّر تكامل هذه الضوابط عن الأساس الأخلاقي للفكر الإسلامي ويضمن البيان ويبرهن عن العمق التاريخي والعلمي له في مضمار الحوار المتحضر، مما يسعفه في تحقيق الشهود الحضاري المنوط به عبر الحوار مع المخالف في أبهى صور الرقي، على النمط الذي تتقارب فيه الأراء وتتقلّص به مسائل الاختلاف وتتحقق به الأهداف، هذه الأخيرة التي ترتبط بالضوابط ارتباط وجود أو عدم.

وأخيرا يتقدم الباحث بجزيل الشكر والعرفان وخالص التقدير والاحترام إلى مجلة المعرفة للدراسة والأبحاث، وهي منارة من منارات العلم والمعرفة، والى اللجنة الساهرة على تنظيم وإنجاح هذه المجلة سائلا الله العزيز القدير أن يزيدهم توفيقا وسدادا وصلى الله وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الهوامش:

[1]. الحجرات:13.

[2]. الروم 22.

[3]. منطق المشرقيين، الشيخ الرئيس ابن سينا، ص34.

[4]. مقاييس اللغة، ابن فارس، ج386/3.

[5].تهذيب اللغة، الأزهري، ج339/11.

[6]. لسان العرب، ابن منظور، ج340/7.

[7]. معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، الكفوي، أيوب بن موسى الحسيني، ج579/1.

[8]. معجم متن اللغة أ، حمد رضا، ج529/3.

[9].الصحاح للجوهري، م 640/2.

[10]. لسان العرب، ابن منظور، مادة حور، ج750/1-751.

[11]. في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، طه عبد الرحمان، ص:154 وما بعدها.

[12]. حوار الحضارات بين الحقيقة والوهم، محمد الكتاني، ص:43.

[13]. ضوابط الحوار في الفكر الإسلامي، مفرح سليمان القوسي،ص:13.

[14]. لسان العرب، ابن منظور، ص:196 – 197.

[15]. الحضارة، حسين مؤنس، ص: 13.

[16]. التراث والمستقبل، محمد عمارة، ص:215.

[17]. ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر(المقدمة)، عبد الرحمان ابن خلدون، ص:44.

[18]. لسان العرب، ابن منظور، ج65/5.

[19]. القاموس المحيط، الفيروزآبادى، ص: 458.

[20]. تجديد الفكر الإسلامي، محسن عبد الحميد، ص:41.

[21]. ليس من الإسلام، محمد الغزالي، ص: 114.

[22] ــ كتاب الأمة، ضوابط التفاعل الحضاري وسائله وآثاره التربوية، محمد يوسف، العدد:125، ص:25.

[23] ــ ثقافة الحوار الحضاري عند المسلمين، حسن الوراكلي، ص:28.

[24]ــ نظرية المقاصد عند الامام الشاطبي، احمد الريسوني ص:342.

[25]. لسان العرب، ابن منظور، ج26/7.

[26]. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ابن قيم الجوزية، ج91/2.

[27]ــ لسان العرب، ابن منضور، ج347/15.

[28]ـــ عمدة القاري شرح صحيح البخاري، احمد العيني.، ج53/1.

[29]ــ لسان العرب، ابن منضور، ج347/15.

[30]ــ المصباح المنير، الفيومي، ص: 632.

[31]ــ عمدة القاري، مرجع سابق، ج53/1.

[32] ــالجمع بين الصحيحين (البخاري ومسلم)، محمد بن فتوح الحميدي، ج112/1.

[33] ــالفجر الساطع على الصحيح الجامع، محمد الفاطمي الزرهوني، ج43/1.

[34] ــ فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، ج15/1.

[35]ــ بدائع الفوائد، ابن قيم الجوزية، ج3 /189.

[36]ــ إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن قيم الجوزية، ج199/4.

[37]ــ المرجع نفسه، ج4/ 500.

[38] ــمجموع الفتاوى، ابن تيمية، ج235/28.

[39] ــ الفقيه والمتفقه، الخطيب البغدادي، ج2 /48ــ49.

[40] ــ بدائع الفوائد، ابن قيم الجوزية، ج3 /190.

[41] ــ هود29.

[42] ــ هود:51.

[43] ــ الشُّعَرَاء109.

[44] ــ النساء35.

[45] ــ هود:88.

[46] ــ مقاصد الشريعة الإسلامية، ابن عاشور، ج194/3.

[47] ــ من أمهات مصادر الفقه المالكي لصاحبه القاضي إسماعيل(282 ت)، سير أعلام النبلاء، الذهبي، ج13 /339، الطبقة الخامسة، ملاحظة:لم أجد لهذا الكتاب أثر في كشف الظنون لحاجي خليفة وهو مفقود في حدود علمي.

[48] ــ الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض، ص:591.

[49] ــ ميلاد مجتمع، مالك بن نبي، ص:52.

[50] ــ الرعد11.

[51] ــ مقاصد الشريعة الإسلامية، الطاهر بن عاشور، ج 197/3.

[52] ــ خصائص التشريع، الدريني، ص: 27.

[53] ــ المرجع السابق، ص:68.

[54] ــ مبادئ الإسلام ومنهجه في قضايا الحرب والسلم والعلاقات الدولية، محمد ميقا، ص:19.

[55] ــ وجهة العالم الإسلامي، مالك بن نبي، ص:30

[56] ــ الإسلام عقيدة وشريعة، محمد شتلوت، ص:465.

[57] ــ خصائص التشريع، فتحي الدريني، ص:85.

[58] . الشرع الدولي في عهد الرسول، عبد الوهاب كلزية، ص:136.

[59] ــ وجهة العالم الإسلامي، مالك بن نبي، ص:53.

[60] ــ المرجع نفسه.

[61] ــ الذاريات 56

[62] – أدب الحوار في الإسلام، محمد سيد الطنطاوي، ص: 53.

[63] ــ أخلاقيات الحوار، عبدالقادر الشيخلي، ص:48ــ49.

[64] ــ أبجد العلوم لجد العلوم ــالوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم، صديق بن حسن القنومي، ج410/1.

[65] – الكافية في الجدل، الامام الجويني، ص:1.

[66] ــ الحج: 8

[67] ــ الإسراء36.

[68] ــ في ظلال القرآن، السيد قطب، 2227.

[69] ــ أخلاقيات الحوار، عبدالقادر الشيخلي، ص:52.

[70] . وسطية الإسلام وسماحته ودعوته للحوار، عبد العزيز التويجري، ص:21.

[71] ــ الحوار مع الذات والآخر، عبد الستار الهيتي، ص: 57.

[72] . إحياء علوم الدين، أبي حامد الغزالي، ج39/1.

[73] ــ فقه الواقع في العمل الإسلامي ضرورة حضارية، عبد الكبير حميدي، wwwmidade com2007_ 11-08-

[74] ــ القرآن والعقل، أبو زيد المقرئ، ص:71.

[75] ــ فقه وقاع الامة دراسة في المفهوم والشروط والعوائق، الشاهد البوشيخي، ص:8.

[76] ــ الموافقات، الشاطبي، ج66/1.

[77] . ص:76.

[78]. ص:79.

[79].سبأ:24.

[80] ــ أخلاقيات الحوار، عبدالقادر الشيخلي، ص:20.

[81] ــ المرجع نفسه، ص:46.

[82] ــ ــالتقريب لحد المنطق والمدخل إليه بالألفاظ العامية والأمثلة الفقهية، ابن حزم، ص:406.

[83] ــ سنن ابن ماجه، ج1330/1، ح رقم ــ4014./سنن أبي داود، ج396/1، ح رقم 4341.// الجامع الكبير للترمذي، ج146/5.وقد ضعفه الألباني في كتابه ضعيف الجامع الصغير وزيادته، تحت رقم 2344، ص:346.

[84] ــ إحياء علوم الدين، الإمام أبي حامد الغزالي، ج:36/1.

[85] ــ غافر:29.

[86] هود 97.

[87] ــ القلم: 4.

[88] ــ الأحزاب: 21.

[89] ــ الشوقيات، الهمزية النبوية، أحمد شوقي، ص42.

[90] ــ الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض، ص:98.

[91] ــ الفرقان: 63

[92] ــ التنبيه على سبيل السعادة، الفرابي، ص: 55.

[93] ــ إحياء علوم الدين، الغزالي، ج40/3.

[94] ــ الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض، ص:98.

[95] ــ مقدمة في علم الاخلاق، محمود زقزوق، ص: 13.

* ــ رغم شهرة هذه الأبيات بانتاسبها للشاعر أحمد شوقي، إلا أنني لم أجد لها أثرا في ديوانه الشوقيات ولافي غيره بحسب علمي.

[96] ــ مبدأ التراحم وتأسيس الحداثة الأخلاقية، طه عبد الرحمان، ص88.

[97] ــ Wolvin, A. (1995). On Competent listening. Listening Post. no. 54 July نقلا عن كتاب التواصل الاجتماعي، حلمي خضر ساري، ص:161.

[98] ــ الفروق في اللغة، أبو هلال العسكري، ص: 28.

[99] ــ طه:12.

[100] ــ الزمر 17.

[101] ــ الإسراء47.

[102] ــ الأعراف 204.

[103] ــ الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، القرطبي، ج11/ 176.

[104] ــ الأنعام: 37.

[105] ــ الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، القرطبي، ج6/ 418.

[106] ــ المرجع نفسه، ج11/ 176.

[107] ــ الرسالة، الشافعي، ص:510.

[108] ــ الادب الصغير والأدب الكبير، ابن المقفع؛ ص133.

[109] ــ الشمائل المحمدية، الترمذي، ص 186.

[110] ــ الادب الصغير والادب الكبيرص:133 مرجع سابق.

[111] ــ الإشارة في تدبير الإمارة، المرادي الحضرمي، ص: 126.

[112] ــ النحل125.

[113] ــ تفسير ابن كثير ص تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ج4/ 532.

[114]ـــ في ظلال القرآن، السيد قطب، ص2202.

[115]ـــ درء تعارض العقل والنقل، ابن تيمية، ج1/ 51ـــ 52.

[116]ـــ التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، ج 14/ 328

[117] ـــالمرجع نفسه.

[118]ـــ فصلت33.

[119]ـــ الجامع الصحيح، مسلم الكتاب: صحيح مسلم، ج4/4.

[120]ـــ معجم اللغة العربية المعاصرة، احمد مختار عمر، ج3/ 673 .